مادة الأدب الأموي (قسم النثر): د. زاهر الشمّاع

المحاضرة السادسة

الصنف الثالث من موضوعات خُطَب العصر الأموي:

ج- خُطَب الحَثّ على الجِهاد:

- **تعريفها:**

هي الخطب التي تحضُّ على قتال العدو، وتُذْكِي الحماسةَ في نفوس المقاتلين وتحملهم على الاستبسال والاستشهاد. واحتلت هذه الخطب منزلة خطيرة وانتفع بها قادة الجيوش وزعماء الثائرين لما عُرِفَ عن نفس العربي من الانفعال والتأثُّر وسرعة الاستجابة للكلام الرائع والبيان الناصع.

- **عوامل ازدهارها:**

إنَّ الظروف التي سادت في المجتمع الأموي هي التي دَعَتْ إلى شيوع أصناف الخطب التي وقفنا عليها. فالوعظ الديني له دواعيه، والخطب السياسية لها دواعيها لكل حزب وفئة منها، وظروف الدولة الأخرى أدَّت إلى ازدهار خطب الحث على الجهاد، وهي تتلخَّص بالحروب الداخلية والحروب الخارجية، فالحروب الداخلية نتيجة الفتن السياسية والأحزاب المختلفة والتي يُحارِب بعضُها بعضاً، والحروب الخارجية (الفتوح) في ثغور الدولة وحدودها حتى اتسعت الدولة فوصلت إلى إسبانيا غرباً وحدود الصين شرقاً.

بدأ هذا النوع من الخطب منذ الطور الأول من الإسلام، حين بدأت الفتوحات الإسلامية في أيام الخليفة أبي بكر ﷺ، وفي ذلك العصر نماذج لهذه الخطابة، وفي العصر الأموي نماذج واضحة أيضاً، فعلى الرغم من انشغال الأمويين بالفتن والحروب الداخلية، إلا أنهم استطاعوا أن يوسعوا رقعة الفتوحات شرقاً نحو خراسان وبلاد الترك والسند، وغرباً حيث أتموا فتح شمال إفريقية والأندلس، وكانت معظم تلك الفتوحات في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك.

وبإيجاز: كانت كثرة الفتوح الخارجية والحروب الداخلية في عصر بني أمية عامل ازدهار هذه الخطب في العصر الأموي.

- **نماذج من خُطَب الحَثّ على الجِهاد:**

لدينا في الكتاب المطبوع نموذجان من هذه الخطب، يندرجان تحت نوع الفتوح (أي الحروب الخارجية): الخطبة الأولى **لطارق بن زياد** في أَوَّلِ لقاءٍ له بالأندلس، والخطبة الأخرى **لقتيبة بن مسلم الباهلي** قالها لتحميس جنده حين قَدِمَ خُراسانَ والياً عليها من قِبَلِ الحَجَّاج عام ٨٦هـ لغزو بلاد طخارستان.

وسنقف بالدراسة والتحليل على نموذج واحد وهو خُطْبَة طارق بن زياد:

أَرسَلَ موسى بن نُصَير (والي المغرب) في عهد الخليفة (الوليد بن عبد الملك) طارقَ بنَ زياد في جيشٍ من البَرْبَر عام ٩٢هـ لغزو شواطئ أوربة في إسبانيا، فخَطَبَ طارقٌ خُطْبَةً في أوَّل لقاء له بالأندلس، يحثُّ فيها جندَه على الجهاد ويرسم سبيل القتال، فقال بعد أنْ حَمِدَ اللهَ وأثنى عليه:

«أيُّها النّاس أينَ المَفرُّ، البحرُ من ورائكمْ والعَدوُّ أمامَكم، فليسَ ثَمَّ – واللهِ – إلا الصِّدقُ والصَّبرُ فإنهما لا يُغلَبان، وهما جُندان منصوران، ولا تَضُرُّ معهما قِلَّةٌ، ولا تَنْفَعُ مع الخَوَرِ[1] والكَسَلِ والفَشَلِ[2] والاختلافِ والعُجْبِ كَثْرَةٌ، ما فَعَلْتُ من شيءٍ فافعلوا مِثْلَه، وإنْ حَمَلْتُ[3] فاحْمِلوا، وإنْ وَقَفْتُ فَقِفُوا، ثم كونوا كهيئةِ رَجُلٍ واحدٍ في القتال، ألا وإنِّي عامِدٌ إلى طاغيتهم بحيثُ لا أَتَهَيَّبُهُ حتى أُخالِطَهُ أو أُقْتَلَ دُونَهُ فإنْ قُتِلْتُ فلا تَهِنوا ولا تحزنوا ولا تنازَعوا فتفشلوا وتذهبَ رِيْحُكُمْ[4]، وإيَّاكم إيَّاكم أنْ تَرْضَوا بالدَّنِيَّة، ولا تَعْطُوا بأَيْدِيْكُمْ، وارغَبُوا فيما عُجِّلَ لكم من الكَرامة والرَّاحة، عن المهانةِ والذِّلَّةِ وما قد أُجِّلَ لكم من ثواب الشهادة فإنَّكم إنْ تُفَلُّوا – واللهُ معكم ومُعِيذُكُمْ – تَبُوْؤوا بالخُسْرانِ المبينِ وسُوءِ الحديثِ غداً بَيْنَ مَنْ عَرَفَكُمْ من المسلمين.»

١– الدراسة المعنوية:

– أفكار الخطبة ومعانيها:

تضمَّنت الخطبة المعاني الآتية:

١– الحضّ على العمل بأسباب النصر (وهي الصدق والصبر)، والتنبيه على عوامل الهزيمة (الخَوَر والاختلاف والكَسَل والفَشَل...).

٢– توضيح خطَّة القتال مع العدو.

٣– التحذير من دناءة النفس تجاه الغنائم والمكاسب.

٤– التحذير من الهزيمة، والترغيب بالأجر وما أُعِدَّ للشهيد من ثواب.

– سمات المعاني:

اتسمت معاني الخطبة بالوضوح، والابتعاد عن الغموض والتعقيد، وكانت مرتبة متسلسلة، تسلم كل فكرة فيها إلى الفكرة التي تليها، كما كانت إيجابية صادقة، بسبب طبيعة الموقف الذي قيلت فيه، وتكشف الخطبة عن تأثر بمعاني القرآن الكريم، ولا سيما تلك المعاني التي تدل على النصر وثواب الشهادة، وطريقة قتال العدو، فضلاً عن اقتباس قوله تعالى: ﴿ فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾[5].

---

[1] الضعف

[2] الضعف والعجز.

[3] حمل على العدو: هجم عليه.

[4] تذهب ريحكم: تتفرقون.

[5] الأنفال: ٨: ٤٦.

٢- الدراسة اللغوية:

- لغة الخطبة:

الألفاظ سهلة واضحة لا أثر للغريب والوحشي فيها، وربما وجدنا بعض الألفاظ الجزلة التي تناسب المقام وهو مقام المعارك والقتال ((**عامد – طاغيتهم – أخالطه**...))، ولغة النص - بصورة عامة - لغة وسطى تناسب جميع المتلقين ليست بالعامية المبتذلة ولا بالعالية المتقعرة. وأما التراكيب فكانت جيدة السبك، متينة مترابطة، لا ضعف فيها، ولا ركاكة، ولا تعقيد.

- الأسلوب:

١- تنوَّعت الأساليب في الخطبة، وتراوحت بين الخبر والإنشاء، فجاء الكلام موافقاً لمقتضى الحال، وربما أكَّد الخطيبُ الجملة الخبرية بأحد المؤكِّدات: (إنَّ، قد ، ألا الاستفتاحية، القسم) ((**ألا وإنِّي عامِدٌ إلى طاغيتهم بحيثُ لا أَتَهَيَّبُهُ**...))، وربما لجأ إلى التوكيد اللفظي ((**وإيَّاكم إيَّاكم أنْ تَرْضَوا بالدَّنِيَّة**...))، وأما الإنشاء في الخطبة فكانت منه الصيغ الإنشائية الطلبية كالنداء ((**أيها الناس**...)) والاستفهام ((**أين المفرّ**...)) والأمر ((**كونوا كهيئة رجل واحد**...)) والنهي ((**فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا**...)).

٢- لم يُعْنَ بالخيال لأن اهتمامه كان منصبّاً على أداء المعنى بشكل مباشر، وربما نقف على بعض ألوان المجاز والكنايات التي جاءت خادمة للنص، مثل: ((**فليس ثَمَّ – واللهِ – إلا الصدق والصبر فإنهما لا يغلبان**)) مجاز عقلي (إسناد الفعل إلى غير فاعله) علاقته سببية، ومثل: ((**ولا تَعْطُوا بأيديكم**)) مجاز مرسل علاقته جزئية، ومثل: ((**كونوا كهيئة رجل واحد**)) كناية عن تراصِّ الصفوف.

٣- أفاد الخطيب من ألوان البديع، كالطباق ((**البحر من ورائكم، والعَدوُّ أمامكم**)) والجناس ((**ما فعلتُ من شيء فافعلوا مثله**)) والتقابل ((**لا تضر مع الصدق والصبر قلة، ولا تنفع مع الخور والكسل...كثرة**)).

٤- جاء أسلوب الخطبة مرسَلاً بعيداً عن السَّجْع، باستثناء بعض الجُمَل المسجوعة ((**البحر من ورائكم، والعَدوُّ أمامكم**))، ((**فإنهما لا يُغلَبان، وهما جُندان منصوران**)) وقد جاءتْ هذه الجُمَل عفوية غير متكلَّفة، وأَحْدَثَتْ أثرها في النفوس.

- **سمات أسلوب خُطَب الحَثّ على الجِهاد:**

الذي نستنتجه من دراستنا لنماذج من خُطَب **الحَثّ على الجِهاد** أنَّ الأسلوب فيها يجيء دون تدبيج أو تنميق، فهو ليس كما رأينا في خُطَب **السياسة** أو **الوعظ الديني**، ويرجع هذا إلى طبيعة الموقف الذي يعيشه القائد مع جنوده الذين كانوا في ذلك الزمن خليطاً من عرب وأجانب، جلُّهم من عامَّة الناس لا خاصَّتهم، ثم إنَّ ذهن القائد يكون في شغلٍ بالمعركة عن تدبيج الكلام ومن ثم يكتفي بالتأثير وأداء الغرض بما يجول في خاطره وتسعفه به قريحته، كما أنَّ الجنود عادةً لا ينظرون إلى قائدهم من خلال قوله وإنما من خلال فعله، وقادةُ الجيوشِ حينها كان فعلُهم يسبق قولهم.

الصنف الرابع من موضوعات خُطَب العصر الأموي:

د- الخُطَب الاجتماعية:

- **تعريفها:**

تتناول الخطابة الاجتماعية الخُطَب التي تُلْقَى في المحافِل والمجالِس لغرضٍ من الأغراض المتصلة بالحياة الاجتماعية كالتهنئة، والتعزية، والتكريم، والمفاخرة، والشكوى، والاستعطاف، وغير ذلك.

- **عوامل ازدهارها:**

تَحَقَّقَ للخطابة الاجتماعية نَصِيبٌ وافٍ من الازدهار والنَّماء في عصر بني أمية، لدواعٍ منها:

١- نشاط الحياة الاجتماعية نفسها، ومن مظاهر هذا النشاط: تدفق القبائل على الحواضر والأمصار، وقدوم الوفود على الخلفاء والولاة، واجتماع الناس في المجالس والمحافل، فغدت المراكز الحضرية مقارّ الحركة الخطابية النَشِطة وكثر فيها الخطباء كما كثر المناسبات الاجتماعية الداعية للخطابة.

٢- كثرة الخطباء المفوّهين المتميّزين في العصر الأموي، وقد امتلك هؤلاء الخطباء نواصي البلاغة والبيان، وكانوا يجيدون الكلام في المجالس والمحافل.

٣- التشجيع المادي والمعنوي الذي لقيه الخطباء في العصر الأموي، وكان هذا خليقاً بحملهم على تجويد خطبهم وتحبيره.

٤- كان اشتعال نار العصبية القبلية في هذا العصر من الأسباب الداعية إلى كثرة المفاخرة القبلية.

- **نماذج منها:**

١) خُطَب المحافل والوفود:

وهي الخطب التي كان خطباء الوفود يلقونها حين يقدمون على الخليفة أو الأمير، وكذلك الخطب التي كانت تلقى في المحافل الخطابية. ولا شك أنَّ هذا الضرب من الخطب كان أرقى ألوان الخطب الاجتماعية، لما كان الخطباء يبذلونه من الجهد في تحبيرها وتجويدها للظفر بإعجاب الخليفة والوالي وإعجاب من يشهدون هذه المحافل، ولنيل الجوائز التي كان يحظى بها الخطباء المفوَّهون، ولأنَّ هذه المحافل كانت أشبه بحلباتٍ يتبارى بها أئمة الفصاحة وأعلام البيان، وكان لخطب الوفادات آداب ومراسم خاصة، فينبغي أن يكون المتكلم من ذوي السنّ والمنزلة في القوم، وأن تكون له هيئة حسنة، وأن يرتدي ما يليق بمن يمثِّل الخليفة أو الأمير.

- **خصائصها:**

يغلب على خطب الوفادات القِصَر والإيجاز، لأنَّ المقام لا يستدعي الإطالة، ويغلب عليها أيضاً قِصَر الفقرات، ويظهر فيها الحرص على أناقة العبارات وإجادة الصناعة، ولذلك وقع السَّجْع في طائفة منها، كخطبة الأحنف بن قيس التي قالها في مجلس معاوية، يشكو فيها سوءَ حالِ أهلِ البَصْرة فيقول: « **يا أمير المؤمنين، أهلُ البَصْرةِ عَدَدٌ يَسِيْر، وعَظْمٌ كسير، مع تتابُعٍ من المُحُول**[٦] **، واتصالٍ من الذُّحُول**[٧]**،**

[٦] سنوات القحط والجفاف.

[٧] الذحول: ج ذَحْل وهو الثأر والحقد والعداوة.

فالمُكْثِرُ فيها قد أَطْرَقَ[٨]، والمُقِلُّ قد أَمْلَقَ، وبلغ منه المُخَنَّق، فإنْ رأى أمير المؤمنين أنْ يَنْعَشَ الفقيرَ، ويَجْبُرَ الكَسِيْرَ، ويُسَهِّلَ العَسِيْرَ، ويَصْفَحَ عن الذُّحُولِ، ويُداوِيَ المُحُولَ، ويَأْمُرَ بالعطاء ليَكْشِفَ البَلاءَ ويُزِيْلَ اللأواءَ[٩]...».

٢) المفاخرات:

خَلَّفَ لنا العصر الأموي طائفة من المفاخرات كانت وليدة العصبيات المختلفة التي استمرت في هذا العصر، وجُلُّ المفاخرات التي انتهت إلينا قَبَلِيَّة، تُعَدُّ استمراراً للمفاخرات والمنافرات الجاهلية القديمة التي حاربها الإسلام، فخمدت جذوتها حيناً، ولكن لم يُقْضَ عليها، وإنما عادتْ إلى الظهور في العصر الأموي، وشجّعت سياسة بني أمية في بعض الأحيان على استمرارها وانتشارها.

تنوَّعت المفاخرات في هذا العصر، فمنها مفاخرات بين الأُسَرِ ضمن القبيلة الواحدة، كمنافرة معاوية وابن عبّاس، ومفاخرة عبد الله بن الزبير ومعاوية.

ومنها مفاخرات تكون بين قَبِيْلَتَيْن، كمفاخرة الأبرش الكلبي (يَمَنِيّ) وخالد بن صفوان (مُضَرِيّ) وهما عند هشام بن عبد الملك، قال الأبرش الكلبي: « **لنا رُبْعُ البيت[١٠] ومنّا حاتِمُ طَيِّئ، ومنّا المهلَّبُ بنُ أبي صُفْرة**» فقال خالد: « **منّا النبيُّ المُرْسَل، وفينا الكتابُ المُنْزَل، ولنا الخليفةُ المُؤَمَّل**». قال الأبرش: لا فاخرتُ مُضَرِيّاً بَعْدَكَ.

ومن ألوان المفاخرات التي وُجِدَتْ في عصر بني أمية المفاخرات بين المدن، وترتدُّ إلى العصبية التي استشرتْ في هذا العصر، وزادت الخصومات السياسية في حِدَّتها وعنفها. وأشهر هذه المفاخرات تلك المفاخرة التي وقعت بين أهل البصرة وأهل الكوفة في مجلس الخليفة عبد الملك بن مروان.

- خصائصها:

تأثّر أسلوب المفاخرات في هذا العصر بأسلوب المفاخرات والمنافرات الجاهلية، فاتَّسمَ بقِصَرِ الفقرات، والسَّجْع، وغرابة الألفاظ، والتأنُّق في الصَّنْعة.

٣) خُطَب التأبين والتعزية:

هذه الخطب كانت تقال حين كان القوم يفقدون رجلاً من ذوي المكانة فيهم، فأمَّا خطب التأبين فيتجه فيها الخطيب بخطبته إلى الميت، يعدِّد مناقبه وسجاياه التي طواها القبر، ويصوّر ما خلّفته الفاجعة من الحسرة والأسى في القلوب، ثم يطلب للفقيد المغفرة والثواب، ويدعو الله أن يدخله الجنة. ومثالها قول محمد بن الحنفية حين وقف على قبر أخيه الحسن يؤبِّنه قائلاً: « **يَرْحَمُكَ اللهُ أبا محمد، فلئن عَزَّتْ حياتُكَ، لقد هَدَّتْ وفاتُكَ، ولَنِعْمَ الرُّوْحُ رُوْحٌ تَضَمَّنَهُ بَدَنُكَ، ولَنِعْمَ البَدَنُ بَدَنٌ تَضَمَّنَهُ كَفَنُكَ، وكيف لا يكون كذلك وأنتَ بَقِيَّةُ وَلَدِ الأنبياء، وسَلِيْلُ الهُدى، وخامِسُ أصحاب الكِسَاء[١١]،...**»

وأمَّا خطب التعزية فيتجه فيها الخطيب إلى ذوي الفقيد، فيعزِّيهم عن فقده، ويدعوهم إلى التذرّع بالصبر والتجلّد، ويعدِّد مناقب الفقيد، ويذكر ما خلفه فقده من الحزن والأسى، ثم يدعو الله أن يغفر له ذنبه ويدخله جنته. ومن ذلك قول عبد الله بن همّام السلولي الذي دخل على يزيد بن معاوية، فقال يعزِّيه بوفاة أبيه ويهنِّئه بالخلافة: « **يا أمير المؤمنين، آجَرَكَ اللهُ على الرزيّة، وبارك لك في العطيّة، وأعانك على**

---

[٨] افتقر.

[٩] اللأواء: الشدّة والضُّرّ.

[١٠] يريد الركن اليماني.

[١١] أصحاب الكساء: كساء رسول الله وآل بيته هم: النبي ﷺ وفاطمة وعلي والحسن والحسين.

الرعيّة، فلقد رُزِئْتَ عَظِيماً، وأُعْطِيْتَ جَسِيماً، فاشكُرِ اللهَ على ما أُعْطِيْتَ، واصْبِرْ على ما رُزِيْتَ، فقد فقدتَ خليفةَ اللهِ ومُنِحْتَ خِلافَةَ اللهِ، ففارقتَ جَلِيلاً ووُهِبْتَ جَزِيلاً.»

- **خصائصها:**

العاطفة في خطب التأبين أصدق، لأنَّ الخطيبَ غالباً ما يكون من أهل الفقيد، فتأتي خطبته تعبيراً عن مشاعره حقيقةً، والمبالغة في خطب التعزية أكثر، والصنعة فيها أظهر، وخاصة في الاهتمام بالسجع والتوازن، أو تضمينها شيئاً من الشعر، إرضاءً للمخاطب، وإظهاراً لبلاغة الخطيب، والحزن في النوعين حزن معتدل هادئ، لا إسراف فيه، يظهر فيه الإذعان لقضاء الله والتسليم لحكمه.

٤) خُطَب إصلاح ذات البَيْن:

وتُعرَف بخطب الحمالات[١٢]، وكانت تُلْقَى بعد أن تضع الحرب أوزارها بين القبائل المتعادية، فيجتمع أشراف هذه القبائل لعقد الصلح. وقد عُرِفَتْ هذه الخطب منذ العصر الجاهلي، وظلّت قائمة في العصر الأموي لبقاء دواعيها. وتميَّزَ أهلُ البادية بهذا اللون من الخطب وفاقوا فيه أهل الحضر، لاتصاله بحياتهم وبيئتهم.

ومن خطب الصلح خطبة الأحنف بن قيس التميمي التي قالها حين هاجت الفتنة بين الأزد وربيعة في البَصْرة، وجاء فيها: «**يا معشر الأزد وربيعة، أنتم إخواننا في الدِّيْن، وشركاؤنا في الصِّهْر، وأشقَّاؤنا في النَّسَب، وجيراننا في الدار، ويَدُنا على العدو. واللهِ لَأَزْدُ البَصْرَةِ أَحَبُّ إلينا من تميم الكوفة، ولَأَزْدُ الكوفةِ أَحَبُّ إلينا من تميم الشام، فإن استشرى شَنَآنُكُمْ[١٣] ،وأَبَى حَسَكُ[١٤] صُدُوركم، ففي أموالنا وأحلامنا سَعَةٌ لنا ولكم.**»

- **خصائصها:**

كان الخطباء في إصلاح ذات البين يخطبون قائمين، وكانت الإطالة مرغوبة في هذا اللون من الخطب، فالخطيب ينفِّر فيها من الحرب، ويُظْهِرُ ما تجرُّه من ويلات ومكاره، ويدعو إلى استلال الضغائن وتصفية القلوب من الأحقاد، ويبدو أنه كان من شروط هذه الخطبة ترك السَّجْع، والجريان مع الطبيعة، دون تَكَلُّف ولا صَنْعة، وربما وقع فيها شيء من الترداد والتكرار.

---

[١٢] الديات.

[١٣] الشنآن: البغض والعداوة.

[١٤] الحسك: الحقد.

الخصائص العامَّة لِخُطَب العصر الأموي

كانت الخطابة الأموية استمراراً للخطابة في صدر الإسلام، فقد بَقِيَتْ محافظةً على بلاغة المنطق العربي، وحسن البيان، وجودة الإفصاح والإفهام، مع الديباجة الرائعة والرونق البديع. وسنميِّز في الكلام على خصائصها العامَّة بين خصائص **المضمون**، وخصائص **الشكل**.

أ- خصائص المضمون:

١) اتسعتْ مضامين الخطابة في هذا الطور من الناحية العقلية اتساعاً كبيراً، فقد رقي الفكر العربي في هذا العصر رقياً كبيراً، وأصبح أميل إلى مخاطبة العقل منه إلى مخاطبة الوجدان، وكان ذلك بسبب التحولات الكبيرة التي طرأت على المجتمع العربي في هذا العصر، وأبرز تلك التحولات: تحوّل نظام الخلافة إلى ملك وراثي، وقيام الأحزاب السياسية نتيجة لتحوُّل نظام الحكم وأحداث العصر، واتساع رقعة الدولة باتساع الفتوحات، واختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأجنبية، ودخول جماعات كبيرة من الأجانب في الإسلام، وامتزاج ثقافات هؤلاء الأجانب بما كان للعرب من ثقافات موروثة.

إنَّ هذه الأمور كلها أدَّتْ إلى تطوُّر الفكر العربي تطوراً ملحوظاً، فقامت المناظرات الكلامية، حول مسائل السياسة والدين، وكثر الجدل الفكري بين أصحاب السياسة وأصحاب علم الكلام والعقائد، وأثّر هذا كله في الجانب العقلي من حياة العرب تأثيراً واضحاً، فارتقت موضوعات الخطابة لديهم. وصحيح أن تلك الموضوعات كانت متوارثة منذ العصر الإسلامي، لكن مضامينها أصبحت أكثر رقياً وتنوعاً من الناحية العقلية.

٢) تتصل بالسمة الأولى- سمة اتساع المضامين — سمة أخرى، هي تنمية الأفكار وتوليد المعاني. وصحيح أن الخطابة في هذا العصر كانت تقوم على الطبع والسليقة، ولكنّ ارتقاء الطبع بارتقاء العقل، وتعدد مشاربه الثقافية، أدى إلى نهوض الأفكار والتوليد في المعاني، ونجد أمثلة لهذا في خطابة ولاة بني أمية مثلاً، فقد راحوا يولدون في معاني الشدة والعنف، والتهديد والوعيد، فلم يَدَعُوا سبيلاً في هذا الشأن إلا سلكوه، ونلمس هذا الجانب أيضاً في خطب الوعظ الديني، فقد استطاع الخطباء أن يتوسّعوا في المعاني وأن يولّدوها توليداً يتناسب والنمو العقلي الذي وصل إليه الناس، والأمثلة واضحة في خطب الحسن البصري، وعمر بن عبد العزيز، وفي خطب الخوارج التي غلب الجانب الديني عليها، فقد اتسعت المعاني في خطب هؤلاء، مما يؤكد إلمامهم الجيد بالتراث الأدبي الموروث، وبالثقافات الجديدة التي طرأت في هذا العصر.

ب- خصائص الشكل:

١) ظهور الروح الديني في الأسلوب، وذلك بسبب التأثر الواضح بالقرآن الكريم، ومحاكاة أسلوبه، وقد مرّت بنا أمثلة كان الخطباء فيها يتخذون من القرآن الكريم منهلاً ينهلون منه في الألفاظ والتراكيب، ويصوغونها في خطبهم، وقد يلجؤون إليه اقتباساً أو استشهاداً، ومن ثمّ تطبع أسلوبهم بطابع القرآن، فظهرت السمة الإسلامية في أنواع الخطب كلها، السياسية منها والحربية (الحثّ على الجهاد)، لا في خطب الوعظ الديني وحدها.

٢) مراعاة مقتضى الحال، والاتجاه إلى التوسّط في القول، فقد كان الخطباء، وخاصّة الوعاظ منهم، يميلون إلى أن يكون كلامهم مطابقاً لعقول سامعيهم، ولما كان هؤلاء السامعون خليطاً من عرب وغير عرب، وخاصّة وعامّة، اختار الخطباء لأنفسهم أسلوباً وسطاً، خلا من الألفاظ الغريبة، ونأى عن الألفاظ السوقية المبتذلة، فكان أسلوبهم أسلوباً مولّداً جديداً، لا يرتفع عن الموالي وفئات العامة بما قد يكون فيه من لفظ غريب، ولا يهبط عن العرب وفئات الخاصة بما فيه من لفظ مبتذل. أسلوب وسط عماده الفصاحة والوضوح.

٣) إثارة الخيال في أذهان المستمعين والتأثير في نفوسهم من خلال استعمال التصوير غير المباشر، من مجازات واستعارات وكنايات. وإذا كان الخطباء قد أولوا مخاطبة عقول سامعيهم عناية خاصة باتجاههم إلى تفريع الأفكار ودقة المعاني وتنميتها، فقد عمدوا أيضاً إلى تحقيق ذلك عن طريق الصور الخيالية، التي تثير عقل السامع ووجدانه.

٤) الميل إلى الإطناب القائم على الترادف والازدواج، وقد شَهِدَ العصرُ الأمويُّ بواكير الميل إلى الإطناب، وظهرتْ هذه الخاصة بعد ذلك في العصر العباسي بوضوح، وبرع فيها الجاحظ بصورة خاصة. ووجدنا خطباء العصر الأموي يميلون إلى هذا الأسلوب ولكنهم لا يتخذونه بصورة دائمة، فاستخدامهم لهذا الأسلوب كان يأتي في كلامهم عرضاً، لا غالباً، ولهذا لم يكونوا سجّاعين في خطبهم، ولكن خطبهم لا تخلو من السجع، وكانوا يميلون إلى السجع الازدواجي أكثر من ميلهم إلى السجع الذي تطول فيه الفواصل. يبدو ذلك واضحاً حتى في كلام النساء، فقد ذكر الجاحظ تأبيناً لفَرغانة بنت أوس بن حَجَر تؤبِّن فيه الأحنفَ بنَ قيس، قالت: «**لقد عِشْتَ حَمِيْداً، ومُتَّ فَقِيْداً، ولقد كنتَ عظيمَ الحِلْم، فاضِلَ السِّلْم، رفيعَ العِماد، واريَ الزِّناد، منيعَ الحريم، سليم الأديم، وإنْ كنتَ في المحافل لَشَرِيفاً، وعلى الأرامل لَعَطُوفاً، ومن الناس لَقَرِيباً، وفيهم لَغَرِيباً**...» غير أن خطباء السياسة وخطباء الوعظ الديني — على الرغم من استخدامهم هذا السجع الازدواجي — لم يكونوا يلتزمون به في الخطبة كلها، ويبدو أن التزام السجع بهذه الصورة كان عند أهل البدو أكثر منه عند أهل الحضر الذين كانوا يوشون به كلامهم ولا يجعلونه منهجاً لأساليبهم التي يغلب عليها الترسّل.

٥) المطابقات والمقابلات بين المعاني، وهي خاصّة رأينا بذورها الأولى في عصر صدر الإسلام، وخاصّة في أقوال عمر بن الخطاب ﷺ، ولكنها اتضحت أكثر في العصر الأموي عند خطباء السياسة وخطباء الوعظ الديني، ومهّدت هذه الخاصة لشيوع لون الطباق في كتابات العباسيين، خاصة في حديثهم عن الطاعة والعصيان، والحياة والموت، والجنة والنار، فقد كانوا يصوغون خطابتهم على المطابقة والمقابلة بين المعاني. وصحيحٌ أنَّ تلك المقابلات والمطابقات ظهرتْ واضحة في كلام الوعّاظ، لكنها لم تقتصر عليه، فوجدتْ أحياناً في الخطب السياسية، وإن كان ظهورها في خطب المواعظ أوضح وأكبر.

انتهت المحاضرة السادسة